أهمية التفلسف وضرورته

تعريف بالفلسفة العامة

كانت الفلسفة فى الأصل دائرة معارف عامة . وباتساع نطاق التجارب والمشاهدات ، وتقدم البحث العقلى ، أخذ كلُّ لون من ألوان المعرفة يستقلُّ بذاته علماً واضح المعالم بيِّنَ المنهاج .

وقد دعت الثورة العلمية الجبارة التى تحققت فى غضون السنوات العشر الأخيرة ، دعت هذه الثورة أساطين الفكر ، ورجال الفلسفة إلى التساؤل : هل أصبحت الفلسفة غير ذات موضوع بعد أن اقتسمت تراثها العلوم المختلفة ؟ .

ولكننا سرعان مانستبين أن العلم لا يستجيب لمطالب العقل البشرى جميعها : فليس فى وسع العلم أن يمكننا من الإحاطة بمعرفة العالم، وبإدراك المطلق ، *L'absolu* . والعلم لا يضع لنا غاية نتطلَّع إليها فى أفعالنا ، ولا يحدّد لنا هدفاً نتوخّاه فى أعمالنا . ومن ثم لزم أن تظل الفلسفة صِنْواً للعلم ، أو بعبارة أصح أن يتعاون كل من الفلسفة والعلم تعاوناً وثيقاً فى ظل « تعايش سلمى » *Coexistence Pacifique* من أجل سعادة البشر. فالفلسفة لازمة للإنسان لزوم التنفس ، وهنا تحضرنا عبارة أرسطو « إذا لزم التفلسف وجب أن نتفلسف ، وإذا لم يلزم التفلسف وجب أيضاً أن نتفلسف حتى نثبت عدم لزوم التفلسف » .

والإنسان شغوف بالمعرفة متطلِّع إلى البحث والتنقيب ، لا ينقطع تساؤله عن طبيعة المعرفة القائمة فى عقله ، وهل هذه المعرفة ثمرة التأمل

الخالص والنظر البحت أى وليدة نشاط عقلىّ صرف ، أم أنها مستمدة من الأشياء الخارجة آتية من التجربة ؟ أو أنها تنجم عن التأمل العقلى والملاحظة والتجربة جميعاً ؟ .

والتأمُّل الفلسفى يتخطَّى بنا حدود الإمكانيات التجريبية ويبحث القيمة فى ذاتها . والفلسفة العامة تتناول بالدراسة المشاكل التى قد تعترض العلوم الجزئية فى أبحاثها ، فتقف هذه العلوم إزاءها مكتوفة الأيدى عاجزة عن التوصل إلى حلول مرضية لها : من قبيل ذلك مشكلة الصلة بين الوقائع النفسية *Faits Psychologiques* والوقائع الفسيولوجية *Faits Physiologiques* ووحدة النفس أو (الأنا) *Ego* ، وطبيعة الأحساسات والأفكار والذاكرة ، وعلاقتها جميعاً بالحقيقة الواقعية أو بالواقع *Réalité* ، ومشكلة أصل العقل وقيمته ودعامة العلم ومجاله ومستواه ، ومشكلة الضمير الأخلاقى والمسئولية ...، مثل هذه المشاكل وما على غرارها تتناوله الفلسفة العامة بالفحص . أوَ ليست الفلسفة محبة للحكمة ؟ وأليست الحكمة تعنى المعرفة والفضيلة فى آن واحد . ومن ثم كان للفلسفة غايتان جوهريتان .

١ ـ غاية نظرية : فهى تتوخَّى تزويدنا بمعرفة للحقيقة ، وتروم تفسيرها.

٢ ـ غاية عملية : فهى تسعى إلى التماس مفهوم واضح للخير وتضع لنا قواعد راسخة لسلوكنا الأخلاقى .

ولو أننا روّينا النظر فى موضوع الفلسفة لرأينا أنها تستهدف هدفاً مماثلا لذلك الذى تستهدفه الأديان السماوية . بيد أن الدين يعتمد على الوحى ويستند إلى الإيمان ، بينما تتوسل الفلسفة إلى تحقيق هدفها الذى

ارتسمته بالتأمل البحت والتفكير السليم والاجتهاد العقلى ، معتمدة فى ذلك على ملكات العقل البشرى .

ومن ثمّ فالمنهج الفلسفى منهج عقلىّ فى جوهره : فالفلسفة لا تقرّ شيئاً على أنه الصواب إلا ما يراه العقل أنه كذلك .

العلوم والفلسفة

ولكن إذا كانت هذه هى طبيعة الفلسفة أليس يحتمل أن يختلط مفهومها على أذهاننا مع مفهوم العلم ؟ إن كل علم وليد البحث العقلى والتجريبى فى آن واحد ، ونحن نعلم أن الروح الحافز لتقدم العلم فى جميع مجالاته ينبع من العقل البشرى .

وقد زعم البعض أن الفلسفة قد فات أوانها وولّى زمانها ، فما عليها إلا أن تقبع مهيضة الجناح فى ركن ناء وتنحصر رسالتها فى معرفة عامة وفروض شاملة . على أننا قد رأينا أن الفلسفة ارتبطت منذ القدم ارتباطا وثيقا بالمعارف العلمية . فلم يكن هنالك فى الأصل علوم متميزة بل كانت الفلسفة تحيط بألوان المعارف على تنوّعها وتعدّدها . بيد أن انفصال العلوم عن الفلسفة واستقلال كلٍّ منها بموضوعه ومنهاجه ، كل هذا قد يبدو فى الظاهر موهناً من قدر الفلسفة ، مضيّقاً كل التضييق لمجالات تأمّلها . هذا والمعرفة العلمية تمتاز بأنها معرفة يقينية أو تكاد تكون يقينية *Connaissance quasi-certaine* ، وثبت بالتجربة صحتها ، بينما المعرفة الفلسفية لا تعدو أن تكون فروضاً تختلف بين مفكر وآخر ، ومن مذهب إلى آخـــر . والفلسفة من ثم لم تعد بذاتها مصدراً للمعارف

المتخصصة *Connaissances Spéciales* ، وقد طغى العلم على مجالها فأخذ هذا المجال يضمر حتى يكاد يتلاشى . ويذهب العلامة جوبلو *Goblot* إلى القول بأن الفلسفة تشتمل فحسب على دراسة كل ما لم ينجح الإنسان بعد فى معرفته معرفة علميه .

ونحن إذا تابعنا دراستنا لمسئلة ضرورة الفلسفة ، لرأينا أن كل علم من العلوم له مجاله الخاص الذى لا يتعداه . فالرياضيات مجالها الكم ، والطبيعيات تبحث فى الحركة والتغيّر ، وعلم النفس يدرس الظواهر النفسية والسلوك . . . الخ . والإنسان ينزع بطبعه إلى دراسة عامة شاملة يحلّق بها فوق موضوعات العلوم جميعاً فى نظرة جامعة . هذه الدراسة لا تتلقاها من أى علم من العلوم الجزئية ، فتبادر الفلسفة بالنهوض بها . وليس ثمة نزاع فى أنها تنهض بهذه المهمة على ما فيها من جلال وخطورة . وقد أقر أوجست كومت *Anguste Comte* نفسه ، وهو كما نعلم مؤسس المذهب الوضعى وهو الذى يرى أنه ليس ثمة معرفة ممكنة خارج نطاق العلوم الوضعية ؛ أقول أقر « أوجست كومت » بهذا الدور الذى تؤديه الفلسفة ، فهو يرى أن الفيلسوف أشبه بضابط اتّصال بين مختلف العلوم .

فالفيلسوف إذن يدرس العموميات ويتوخى أن يجمع فى نظرة شاملة جوهر المعارف الإنسانية ويوحّد بينها .

عدم كفاية العلم

وإذا كانت المعرفة العلمية ثمرة لنشاط العقل ، فإن العقل ذاته لا يجد فيها غناء ولا مقنعاً . والإنسان يبغى معرفة العالم وفهمه ، ويروم معرفة

ماهية الواقع وطبيعة أصل العالم وعلته . ويعنيه أن يكون على بيِّنة من مصيره ، وما يجب عليه عمله . هذا المجهود الذى يبذله الإنسان سعياً وراء المعرفة ، والفهم المحيط بكل شيء ، معرفةً وفهماً يمكِّنانه من تدبير أفعاله وتوجيه سلوكه على خير وجه وأكمله ، هذا المجهود عينه لا سبيل إلى تحقيق غاياته وإصابة أهدافه فى نطاق العلم وإطاره . هذا المجهود الفعال هو مَعِينٌ لا ينضب للتأملات الفلسفية .

ويلوح لنا أن العلم لا يستطيع أن يصل إلى فهم تام شامل لماهية الواقع . فالقوانين لا تعدو أن تكون علاقات مطَّردة *Rapports Constants* بين الظواهر ولكنها ليست علاقات مفسرة *Rapports explicatifs* للظواهر عينها. ومن ثم نجد أن القوانين لا تكشف لنا عن سبب وجودنا ولا تظهرنا على علة الظواهر . ولكن ذهننا التوّاق إلى الفهم المدرك والإدراك المحيط ينزع إلى معرفة العلل الأولى .

والعلم لا ينطبق إلا على الظواهر أعنى على النسبى ، والتفكير يسعى إلى معرفة الأشياء فى ذاتها ، إلى اكتناه طبيعة الواقع كما هو موجود وجوداً مستقلا عن أنفسنا . ومن ثم يثير العلم مشكلات تتصل بجوهر الأشياء وطبيعتها .

وبعض هذه المشاكل لا ينبغى أن نُغفِله أو نَغْفَل عنه ، إذ أن الانسان يبغى معرفة ما عسى أن تكون عليه طبيعته ، وماذا سيؤول إليه مصيره . وهو يروم معرفة ماهية خلود النفس ، وطبيعة الله فاطره ومدبر الكون كله . والعلم لا يغنيه عن ذلك شيئاً .

والعلم يقف قاصراً متخاذلا أمام مشكلة تتصل بصميم وجودنا وبأعماق حياتنا ، أعنى بها مشكلة الفعل الإنسانى . فالعلم يتمثل لنا جماعامن أحـــكام مستخلصة من الواقع ، فهو يدرس ماهو كائن *Ce qui est* ويسجل ماتمليه عليه الملاحظة والتجربة،ويقرر الأحكام بصددها . ونحن لا نستطيع أن نستخلص مما هو كائن ما ينبغى أن يكون *Ce qui doit être* ، فنحن لا يمكننا أن نولّد من حكم واقعى حكما قيمياً *Jugement de valeur* وعلى ذلك فإذا كان العلم يمدنا أحيانا بوسائل الفعل ، فإنه لا يضع لنا غايات هذا الفعل . وإذن فالعلم يترك المشكلة الأخلاقية دون أن يلتمس لها حلا مُوَفقاً .

مطالب العقل والميتافيزيقا

إن العلم لا يكفى إذن جميع مطالب العقل . وقد حاولت الفلسفة دون ما توان أن تتخطّى حدود العلم، وأن تضع أسساً للميتافيزيقا والأخلاق ولنظرية القيم بوجه عام .

والميتافيزيقا على نحو ما تفهم فى أغلب الأحيان ، تحاول فهم حقيقة الأشياء ذاتها ، وتتوخّى تفسير طبيعة العالم تفسيراً كاملا محيطاً وتروم الكشف عن أصله الأول .

ويقصد بالميتافيزيقا *Métaphysique* عادةً دراسة تتجه إلى معرفة الحقائق القائمة فيما وراء الطبيعة التى تدرسها العلوم . ونجد مع ذلك أن التمييز بين العلم والميتافيزيقا يرجع إلى عهد قديم جداً ، ذلك لأن أرسطو يميز الفلسفة الأولى من العلوم الجزئية . وهذه الفلسفة الأولى تختص

فى رأيه « بالنظر فى الموجود بما هو موجود » . وقد خصّ أرسطو بحث الميتافيزقا فيما هو موجود للتفرقة بينها وبين العلوم الجزئية التى تبحث فى الموجود « بحال ما » كما هو الشأن فى العلم الطبيعى الذى يدرس ظواهر التغير فى الموجود ، والعلوم الرياضية التى تجرد الكم من المادة . ويرى ديكارت *Descartes* أبو الفلسفة الحديثة ، أن الميتافيزيقا هى دراسة المعارف الأولى مثل معرفة النفس والله . وفى رأى هذين الفيلسوفين ، أرسطو وديكارت ، يتميز كل من العلم والميتافيزيقا بموضوعه ، أما منهجهما ودرجة اليقين التى يصلان إليها فهما سواء فى المجالين على وجه التقريب . بيد أن ديكارت يعتبر حقائق الميتافيزيقا أوثق وأشد يقينا من حقائق العلم .

وقد توالى قيام علوم تتبع مناهج خاصة . ووصلت هذه العلوم إلى نتائج تسلم بصحتها جميع الأذهان ، بينما ما برحت نتائج الفلسفة موطن جدال ومثار نقاش . ومن هنا بدأ الفصل الحقيقى بين العلم والميتافيزيقا ، فقد أصبح من المسلّم به أن العلم لا يختص إلا بدراسة النسبى ولكنه يصل فيه إلى نتائج يقينية لا يكاد يقوم نزاع بصددها . وعلى العكس من هذا تبغى الميتافيزيقا الوصول إلى المطلق . فهى تتساءل عن تركيب العالم فى جوهره وهذا ما يختص به مبحث الكوسمولوجيا العقلية *Cosmologie rationnelle* ، وهى تستفسر عن ماهية الجوهر الروحى ، وعن الله وطبيعته . ولكن هذه النتائج التى تصل إليها الميتافيزيقا موضع أخذ ورد ، فهى لا تعدو أن تكون نتائج فرضية ، ولم ينجح مذهب من المذاهب بعد فى فرض تعاليمه على جميع الأذهان .

ومع ذلك فهناك من الفلاسفة من ذهب فى آرائه إلى حد إنكار إمكان قيام الميتافيزيقا . ففى رأى كانت *Kant* أو فى رأى أوجست كومت *Auguste Comte* كل بحث له طابع ميتافيزيقى ينبغى أن نصرف النظر عنه . ولكن الميتافيزيقا تشبع فى الإنسان حاجة جوهرية ، وليس أدل على ضرورة الميتافيزيقا من أننا لو استعرضنا تاريخ الأفكار والمذاهب ، للاحظنا أنه بعد كل حركة نقدية عظيمة تنصب على تجريح الميتافيزيقا بغية هدمها ، تقوم مذاهب جديدة تنهض بتفسير كامل للعالم ، ومحاولات للتعرف على المطلق . من ذلك أنه بعد النقد الذى وجهه « كانت » إلى الميتافيزيقا ، قامت مذاهب هيجل *Hegel* ، وفشته *Fichte* ، وشيلنج *Schelling* ، وشوبنهاور *Schopenhauer* . وبعد وضعية *Positivisme* كومت حاول كثير من الفلاسفة أن يصلوا من جديد إلى المعرفة الميتافيزيقية . فنجد الفيلسوف الفرنسى هنرى برجسون *Henri Bergson* يحاول أن يظهرنا على إمكان قيام معرفة حدسية بالواقع *Connaissance intuitive du réel* جنبا إلى جنب مع المعرفة العلمية .(١)

على أننا ينبغى أن نميز بين الميتافيزيقا التى تبحث فى أمور الوجود أعنى الميتافيزيقا الأنتولوجية *Métaphyque Onto logique* وهى التى تصل بالضرورة إلى نتائج فرضية بحتة ، وبين الميتافيزيقا النقدية *Critique Métaphysique* وهى التى قد تصل نتائجها الواضحة البينة إلى يقين قد يعدل أحياناً يقين العلم ذاته .

---

(١) راجع الفصل الذى عقدناه عن (الحدسية) فى هذا الكتاب.

الميتافيزيقا والقيم

ثمة قيم ثلاث تعتبر دون منازع دعامات للحياة والتأمل، أعنى بها الحق والخير والجمال . ومجال الحق علم المنطق الذى يبحث فى شروط الفكر الصحيح ، والأخلاق تجلى لنا الخير ، وتعنى بإبراز ما ينبغى أن تكون عليه حياتنا ، وتحدد القيم التى تطبق على أفعالنا ، وعلم الجمال يدرس قيم الجمال، والفلسفة تشمل هذه العلوم جميعاً ، ومن ثم كانت الفلسفة من وجهة النظر الحديثة بمثابة دراسة للقيم .

وفى أيامنا هذه، ونحن ينبغى فى دراستنا للفلسفة أن نعرض للتيارات الحديثة المعاصرة ، أقول فى أيامنا هذه فلسفات عديدة للقيم . وهذه الفلسفات تتساءل ما إذا كان ينبغى نسبة هذه القيم إلى موجود أسمى أم انها آتية من تأمل الإنسان وحيويته وفاعليته فى الوجود . ونحن نلاحظ أنه وإن كانت هنالك أجزاء من الفلسفة أصبحت علوماً (مثل علمى النفس والاجتماع) فإن الميتافيزيقا والأخلاق ودراسة القيم تبدو متنافرة مع البحث العلمى التقريرى؛ فالميتافيزيقا والأخلاق ودراسة القيم هى فى الواقع جوهر الفلسفة ذاتها فى عصرنا الحاضر .

ومع ذلك لا ينبغى أن يغيب عن أذهاننا ما هنالك من وحدة عميقة وارتباط وثيق بين الدراسات الفلسفية وعلم النفس . فالواقع أن الأخلاق وعلم الجمال وعلم المنطق لا تستطيع تحديد القيم إلا بتأملها فى شعور الشخص الذى يحس إحساساً جمالياً ، ويفكر تفكيراً صائباً . أما الميتافيزيقا فإن جهدها الأول منصب على تبين ما هو آت فى ميدان المعرفة من ناحية الذات

Sujet وما هو راجع إلى الموضوع *Objet* . ومن ثم ينبغى أن تعتمد الميتافيزيقا على دراسة الذات العارفة أو الإنسان *Sujet Connaissant*

الفلسفة تبدو إذن وقبل كل شىء تأملا فى موضوع المعرفة والفعل . وعلم النفس *Psychologie* ، كما لايخفى ينصب على دراسة هذا الموضوع. ومن ثم نجد ما لعلم النفس من أهمية فى ميدان التفلسف. ففى نشاط الإنسان العام وأفعاله نجده يفرض ميوله ورغباته على الواقع ، وفى العلم نجد الإنسان يتجه صوب الأشياء الخارجية ، ويحاول أن يستخلص قوانين الظواهر . ولكن بالفلسفة نجد الإنسان يتجه صوب ذاته ويتأمل فى عين أفعاله محاولا أن يكتشف قيمتها ، ويتأمل فى معرفته ويجتهد فى الاحاطة بحدودها ، ومن هنا نجد الانسان يتخطى مجال أفعاله ومعرفته كما تحدث تلقائيا وبالطبيعة ؛ إن وحدة الفلسفة لتتمثل بحق فى التأمل الميتافيزيقى .

Réflexion métaphysique

فالتأمل الميتافيزيقى ينصب على وعينا *Notre couscience spontanée* التلقائى الطبيعى ، على أحكامنا العلمية والجمالية والأخلاقية .

Jugements scientifques, esthétiques, moraux

وليس ثمة دراسة تلقى الضوء على الصلة بين تفكيرنا والمطلق أو الوجود كدراسة مشكلة المعرفة وقيمتها . والمعرفة تسعى وراء الحقيقة فماهى هذه الحقيقة التى يطلبها الجميع ؟ مجرد قيام هذه الدراسة دليل قاطع بضرورة الميتافيزيقا . فليست الميتافيزيقا خرافة كما يروق للبعض أن يزعم.